العملاق

عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه

ربما يكون المرء ضعيفا نحيل الجسد .. ولكنه عملاق في دنيا الرجال

obeikandl.com

« يا غلام.. هل عندك من لبن تسقينا؟ ».

هتف بها الرسول ﷺ وهو يسير مع أبي بكر الصديق للفتى الصغير عبد الله بن مسعود، الذي كان يرعى الغنم، والذي التفت إليهم وهو يقول معتذرا:

- أعتذر لكما، فإن هذه الغنم ليست لي، إنما أرعاها لعقبة بن أبي معيط، وإني مؤتمن.

أعجب الرسول ﷺ برد الغلام، ثم قال له في لطف:

«هل عندك من شاة حائل [1] ، لم ينز عليها الفحل؟»

قال الفتى الصغير عبد الله في غرابة وهو يشير إلى إحدى الغنم:

- نعم..هاهي !

أخذها النبى ﷺ من يد الفتى الذي أحضرها له ، وأخذ يترقب ما يفعل الرسول ﷺ بالشاة وهو يعتقلها [2] ويمسح ضرعها، وما هي إلا دقائق حتى ذهل مما رأى..

لقد بدأت الشاة في إنزال اللبن، وأسرع أبو بكر الصديق بصخرة مقعرة تشبه الطبق ليستقبل ما أنزلته الشاة من حليب..

ووقف الفتى مذهولا وهو يرى الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر يشربان حتى يرتويا..

ليس هذا فحسب..

بل إن ذهوله وصل إلى أقصاه عندما وجد الشاة لا تتوقف عن اللبن، إلا بعد أن أمرها الرسول ﷺ بذلك قائلا لضرعها:

« اقلص..اقلص [3] ».

أخذ الفتى ينظر إلى الرسول ﷺ فاغرا فاه لا يتحدث وكأنه عاجز عن النطق، بينما شكره الرسول ﷺ وأبو بكر اللذان سارا في طريقهما ليتركا الفتى فريسة لدهشة لم ير مثلها في حياته قط .

إلا أن الفتى أفاق بعد لحظات من دهشته ونادى على الرسول ﷺ ليجري عليه قائلا له:

- علمني من هذا القول.

مسح الرسول ﷺ على رأسه وهو يقول له مبتسما :

« إنك غلام معلم » .

ولم تترك الأفكار الفتى الصغير اليوم كله..

---

(١) **حائل**: كل أنثى لا تحمل.

(٢) **اعتقلها**: لوى رجلها وأوقعها على الأرض.

(٣) **اقلص**: انقبض.

كيف حلبت الشاة وهي حائل ؟ ومن هذا الرجل؟ وماذا قال لها ؟

إنه لأمر أشبه بالسحر..

وفي اليوم التالي بحث الفتى عن الرسول ﷺ بكل لهفة ، ليتعرف عليه، ويفك طلاسم الغموض المحيط به.

ووجد الفتى ما يريد.. وعرف سر الشاة التي طاوعت الرجل لتحلب، ثم استجابت له ليتوقف لبنها.

إن الرجل نبي، وإنها معجزة من معجزات الأنبياء .

كان الموقف كافيا لأن يسلم عبد الله بن مسعود بين يدي الرسول ﷺ في بداية البعثة، ليصبح من أوائل من أسلموا.

بهرت الفتى معجزة النبي ﷺ وأخلاقه ورسالته.

وبعدها بسنوات قليلة..أصبح عبد الله بن مسعود من رواد دار الأرقم المنتظمين، يجلس ليستمع بشغف لآيات القرآن التي أنزلها الله على رسوله ﷺ ويحفظها ويتلوها بصوته العذب الجميل.

أحب عبد الله بن مسعود القرآن وتعلق به كالطفل عندما يتعلق بما يحب، فيصير رفيقه ليل نهار، أعطاه طاقة إيمانية جبارة حولته من فتى ضعيف يخشى أن يمشي في مكة رافعا رأسه، إلى شاب شجاع يريد أن يواجه مكة كلها.

نعم.. مكة كلها بما فيها من زبانية قريش وزعمائها المتجبرين.

لقد أعطى القرآن ابن مسعود قوة غريبة، وأعطته مبادئ الإسلام وقوة الدعوة عزة جعلته يستصغر كل من يقف أمامها.

وهذا ما جعله يفاجئ أصحابه يوما عندما قال أحدهم في حماسة :

– والله ما سمعت قريش مثل هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه..؟

وهنا وقف عبد الله بن مسعود بكل ثقة وفخر وهو يقول:

– أنا..أنا أسمع قريشا القرآن !!

كان ابن مسعود ضعيف البنية نحيل الجسد، مما دفع الصحابة لأن ينظر بعضهم إلى بعض في تعجب، ثم التفت أحدهم إلى ابن مسعود ناصحا له وهو يقول:

إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرته يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال ابن مسعود في إصرار:

– دعوني فإن الله سيمنعني.

ولم يستطع أحد أن يقنع ابن مسعود بالتراجع..

وفي صباح اليوم التالي..خرج ابن مسعود من بيته متوجها إلى مجمع الأشراف عند الكعبة، وكل سادات مكة وزعمائها جالسون، ثم جلس وأخذ يرفع صوته بالقرآن..

بسم الله الرحمن الرحيم.. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن] .

قطع الرجال حديثهم فجأة ليلتفتوا إلى مصدر الصوت، فإذا بهم يجدونه ابن مسعود، فقال أحدهم وقد عقد حاجبيه في تعجب:

- ما يقول ابن أم عبد ؟!

قال آخر في حنق:

- إنه يتلو بعض ما جاء به محمد.

كان عبد الله بن مسعود يقف أمامهم بجسده النحيل في تحد واضح يريد أن ينال من كبريائهم وهيبتهم، ولم يرد زعماء قريش لهذا الموقف أن يطول أكثر من ذلك، فقاموا جميعا واندفعوا إلى عبد الله ابن مسعود ليضربوه ضربا شديدا على جسده ووجهه.

ورغم الضرب الموجع الشديد، فلقد فوجئ الرجال بإصرار غير عادي من ابن مسعود، جعله لا يتوقف عن القراءة حتى وصل إلى ما أراد أن يصل إليه، وما أن انتهى من قراءته حتى انصرف عنهم بعد أن أجهدهم.

وفي المساء.. يدخل ابن مسعود على إخوانه في دار الأرقم، فيهرعون إليه في إشفاق ويقول له أحدهم في لهفة:

- ألم نقل لك يا عبد الله ؟ هذا الذي خشينا عليك.

وبنفس الإصرار والعزة والقوة قال ابن مسعود في شموخ:

- ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأعودن بمثلها غدا !

وهنا قال أحدهم فيما يشبه التوسل:

- حسبك، فقد أسمعتهم ما يكرهون.

ويكمل ابن مسعود طريقه مع القرآن، ويترقب بشغف ما ينزل من آيات ويحفظها، ويرددها كثيرا بصوته الرائق الجميل، حتى يتميز بين الصحابة بقدرته على الحفظ، حتى يقول:

- أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة، لا ينازعني فيها أحد.

ويشهد الرسول ﷺ له شهادة فريدة فيقول:

« من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

إلا أن ابن مسعود لم يكن متميزا بحفظ القرآن وبحسن تلاوته فقط، بل إنه كان بارعا في فهم معانيه حتى صار من علماء الأمة وعميد حفظة القرآن جميعا.

لقد علمه ربه كما قال له الرسول ﷺ يوم الشاة:

« إنك غلام معلم » .

ولذا..كان الرسول ﷺ ينصح الصحابة بالاقتداء به فيقول:

«تمسكوا بعهد ابن أم عبد».

ويقول هو متحدثا بنعمة الله عليه:

« والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، ولوأعلم أحدا تمتطى إليه الإبل أعلم مني بكتاب الله لأتيته.. وما أنا بخيركم» .

واستمر القرآن مع ابن مسعود، يعطيه المدد والقوة والجرأة التي ما كان أن يتصورها أحد عليه.

وكان ممن فوجئ بها يوم بدر.. رجل طالما عادى الإسلام طول حياته..

إنه أبو جهل.

فبينما كانت رحى المعركة دائرة، إذا بالفتيان معاذ ومعوذ يسرعان إلى رسول الله ﷺ ليقولا له في فرح شديد:

- يا رسول الله ﷺ قتلنا أبا جهل.. قتلنا أبا جهل.

ويشد الرسول ﷺ على يدي الولدين في فرحة ثم يطلب من عبد الله بن مسعود أن يتأكد من مقتله، فيجري إليه ابن مسعود ليجده لا يزال على قيد الحياة، فيضع ابن مسعود قدمه على صدر أبي جهل، ليقول أبو جهل في كبرياء وغطرسة وهو في الرمق الأخير:

- لم يبق إلا أنت يا رويعى الغنم ؟!

وينظر ابن مسعود إليه نظرة تشف وهو يقول :

« لمن الغلبة اليوم؟ » .

ولم ينتظر ابن مسعود أن يرد أبو جهل، فقال له قبل أن ينزل بالسيف على رقبته فيقطعها:

« لله ولرسوله ».

لقد جاء اليوم الذي يقتل فيه راعي الغنم الفقير الضعيف أبا جهل أحد زعماء قريش وألد أعداء الدعوة.

لقد رفع الإسلام ابن مسعود إلى مصاف العلماء والأبطال الذين شاركوا في كل الغزوات والحروب.

أحب الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود حبا كبيرا، فقربه منه حتى أنه كان الصحابي الوحيد

الذي يستطيع أن يطرق باب الرسول ﷺ من ليل أو نهار، فلقد منحه الرسول ﷺ تلك الميزة بقوله:

«إذنك علي أن ترفع الحجاب» .

وكان الصحابة يقولون في ذلك:

« كان يؤذن لعبد الله بن مسعود إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا».

اقترب عبد الله بن مسعود من الرسول ﷺ قربا شديدا وصل إلى حد الملازمة تقريبا، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر، فهوالذي كان يحمل نعليه وسواكه، حتى إنه أصبح يقلده في سمته وطريقة كلامه، حتى قال عنه حذيفة بن اليمان:

« ما رأيت أحدا أشبه برسول الله ﷺ في هديه، ودله، وسمته من ابن مسعود».

ولم يأخذ ابن مسعود من الرسول ﷺ سمته فقط، فلقد تعلم منه الرفق وطيب العشرة وحسن المجلس والورع الشديد، حتى قال بعض الصحابة الذين اجتمعوا لعلي رضي الله عنه يوما:

– يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلا كان أحسن خلقا ولا أرفق تعليما، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعا من عبد الله بن مسعود.

قال علي:

أنشدتكم الله، أهو صدق من قلوبكم..؟

قالوا:

نعم..

قال:

«اللهم إني أشهدك.. اللهم إني أقول مثل ما قالوا أوأفضل.. لقد قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه.. فقيه في الدين.. عالم بالسنة».

وغضب له الرسول ﷺ يوما عندما سخر منه بعض الصحابة عندما صعد إلى شجرة ليستل سواكا للرسول ﷺ، فجاءت الريح فكشفت عن ساقه النحيلة، فأخذ الصحابة يضحكون، وهنا نظر إليهم الرسول ﷺ قائلا في ضيق:

«تضحكون من ساقي ابن مسعود، لهما أثقل في الميزان عند الله من جبل أحد».

قالها الرسول ﷺ ليزيد الأوسمة التي تنهال على ابن مسعود.. وساما آخر.

كان لصوت ابن مسعود أثره في قلب رسول الله ﷺ، فكان يأنس له ويستعذبه، حتى إنه دعاه يوما لأن يقرأ له بعضا من القرآن قائلا له:

«اقرأ علي يا عبد الله»..

وهنا تعجب ابن مسعود قائلا للرسول ﷺ:

أقرأ عليك، وعليك أنزل يا رسول الله؟!

فقال له الرسول ﷺ:

«إني أحب أن أسمعه من غيري».

فأخذ ابن مسعود يقرأ من سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء]..

فغلب البكاء على رسول الله ﷺ، وفاضت عيناه بالدموع، وأشار بيده إلى ابن مسعود وهو يقول:

« حسبك.. حسبك يا ابن مسعود».

وإذا كان الرسول ﷺ يبلغ حبه وتقديره لابن مسعود إلى هذا الحد ، فكيف يكون حب ابن مسعود للرسول ﷺ؟

كان حبه للرسول ﷺ أكبر من أن يوصف، جعل أقصى ما يتمناه أن يحتضنه الرسول ﷺ باكيا وهو يدفنه في حفرة.

وهذا ما فعله الرسول ﷺ مع الصحابي (ذي البجادين) في غزوة تبوك..

فبعد انتهاء غزوة تبوك دون قتال في السنة التاسعة للهجرة، عسكر المسلمون في طريق عودتهم، وبينما أصاب القلق عبد الله بن مسعود في جوف الليل فأيقظه من نومه، فإذا به ينظر ليجد شعلة من نار من بعيد، فاقترب منها، فإذا به يجد الرسول ﷺ واقفا في الحفرة، وهو يمد يده ليتناول ذي البجادين من يد أبي بكر وعمر، ثم يضمه إلى صدره في حنان وهو يلقي عليه النظرة الأخيرة يقول:

«اللهم إني أمسيت عنه راضيا، فارض عنه».

وإذا بعبد الله بن مسعود يقول لنفسه متمنيا:

– يا ليتني كنت صاحب هذه الحفرة.

هذا كل ما تمناه ابن مسعود.. وهذا كل ما يتمناه كل مسلم.

شهادة من رسول الله ﷺ بالرضا عنه عند مماته.

ولم يكن الرسول ﷺ يرى في ابن مسعود الفقيه القارئ ذي الصوت العذب فقط.. بل كان يراه رجل الدولة القائد الذي يستحق أن يكون خليفة للمسلمين، فقال الرسول ﷺ في ذلك يوما:

« لو كنت مؤمرا أحدا دون شورى المسلمين، لأمرت ابن أم عبد».

إلى هذه الدرجة بلغت ثقة الرسول ﷺ في شخصية ابن مسعود وقدراته، أن يجعله خليفة له شخصيا بالتعيين لو لم يكن هناك شورى في ذلك ؟!

لكم كان يتمنى ابن مسعود أن يضمه الرسول ﷺ إلى صدره وهو يلقي عليه نظرته الأخيرة راضيا.

لكن ابن مسعود هوالذي شهد وفاة الرسول ﷺ..

وحزن عليه حزن الدنيا كلها، بقدر ما كان بينهما من محبة وود.

مات الرسول ﷺ.. وبقيت الذكريات الجميلة تداعب ابن مسعود ليل نهار.

يقرأ القرآن فيتذكره، ويحن له عندما كان يريد أن يستمع إليه منه.

أما أحاديث رسول الله ﷺ، فكان ابن مسعود يصاب بالرعب إذا ما طلب منه رواية حديث خشية أن ينسى منها حرفا.

يقول عمرو بن ميمون:

« اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة، ما سمعته يتحدث فيها عن رسول الله ﷺ، إلا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه: قال رسول الله. فعلاه الكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته، ثم قال مستدركا: قريبا من هذا قال الرسول ﷺ!»

ويقول علقمة بن قيس:

« كان عبدا لله بن مسعود يقوم عشية كل خميس متحدثا، فما سمعته في عشية منها يقول: قال رسول الله ﷺ غير مرة واحدة.. فنظرت إليه وهو معتمد على عصا، فإذا عصاه ترتجف، وتتزعزع!!»

ويحدثنا مسروق عن عبد الله:

« حدث ابن مسعود يوما حديثا فقال: سمعت رسول الله ﷺ.. ثم أرعد وأرعدت ثيابه.. ثم قال: أو نحو ذا.. أو شبه ذا !»

إنه الرسول ﷺ الذي أحبه كما لم يحب أحدا غيره، لا يتحمل أن ينطق حرفا مما قاله عن طريق الخطأ أو السهو إجلالا وتعظيما له، فوصل شعوره بالمسئولية نحو رسول الله ﷺ إلى حد بعيد أدهش كل من حوله.

ورأى عمر بن الخطاب في ابن مسعود ما رآه الرسول ﷺ فيه من قبله، ففوق أنه كان يقدره كعالم وفقيه جليل، استخدمه ليعينه في حكمه، فعينه على بيت المال في الكوفة، فقال لأهلها حين أرسله إليهم:

« إني والله الذي لا إله إلا هو، قد آثرتكم به على نفسي، فخذوا منه وتعلموا».

وكان عمر بن الخطاب يبعث ابن مسعود إلى الكوفة، وهو يعرف طبيعة أهلها الذين تميزوا بالجدال وحب التمرد والثورة.

إلا أن ابن مسعود بهر الجميع بأسلوبه في التعامل معهم، فقد استطاع بحكمته أن يجعلهم طوعا له، وأن يحبوه في إحدى المرات النادرة التي يجمع فيها أهل الكوفة على حب إنسان.

واستمرت علاقة ابن مسعود طيبة بالجميع حكاما ومحكومين، إلى أن جاء عهد الخليفة عثمان..

لتتغير الأمور وتضطرب..

إلى حد كبير.

* * *

بدأ عثمان عهده بمشروع كبير هو توحيد المصحف الشريف، خشية الفتنة التى كادت تحدث بين المسلمين في إحدى المعارك التى كان يقودها حذيفة بين اليمان في عهده، نتيجة لاختلاف القراءات، وأبلغه حذيفة بما حدث ليصدر عثمان قرارا بتشكيل لجنة لتوحيد المصحف الشريف، ووضع على رأسها الصحابي زيد بن ثابت.

كان عثمان بن عفان يعلم بالتأكيد قدر ابن مسعود كعميد لحفظة القرآن، وهو أول الأربعة الذين أوصى الرسول ﷺ أن يكون مرجعا للمسلمين عند اختلافهم في آيات القرآن، ففي الحديث عنه ﷺ قال:

«خذوا القرآن من أربعة:عبد الله بن مسعود..وسالم مولى أبي حذيفة..وأبي بن كعب.. ومعاذ بن جبل..».

ولخطورة الأمر، أراد عثمان بن عفان أن ينجزه بأقصى سرعة، ورأى لذلك ألا ينتظر ليأتي ابن مسعود من الكوفة، وأن يقوم بتشكيل اللجنة فورا ممن هم بالمدينة.

وربما هذا ما أغضب عبد الله بن مسعود، وأنبت الخلاف بينهما، ورفض بعدها أن يسلم مصحفه إلى الخليفة عثمان ليحرقه كما يحرق جميع المصاحف الأخرى، فلا يتبقى بعدها إلا المصحف الذي أقرته اللجنة..

وتصاعد الخلاف إلى الحد الذي أمر فيه الخليفة عثمان بعزله عن الكوفة.

وثار أهل الكوفة الذين أحبوه لقرار عثمان، وذهبوا إليه قائلين:

أقم معنا ولا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه منه.

إلا أن ابن مسعود، الذي تربى في مدرسة رسول الله ﷺ، يعرف كيف يزن الأمور بميزان الإخلاص والتقوى، ولا يدع لنفسه فرصة أن تغلبه فترضي نزواتها على مصلحة الدولة التي استشهد المئات في سبيل إقامتها.

فأخذ ابن مسعود يهدئ من ثورتهم قائلا لهم:

- إن له علي الطاعة، وإنها ستكون أمور وفتن، ولا أحب أن أكون أول من يفتح أبوابها.

ربما يتحدث مسئول أو حاكم كثيرا عن حب الإسلام والتضحية من أجله، ثم يزل في موقف كهذا، ينتصر فيه لنفسه مضيعا فيه بلاده وشعبه.

ولم يكن ابن مسعود مثل هذا الرجل.

بل كان الرجل الذي وضع حب الرسول ﷺ في قلبه، وعلم أن هذا ما يرضيه ففعله دون تردد.

ورغم تصاعد الخلاف بينه وبين عثمان إلى المرحلة التى منع فيها عثمان عنه راتبه ومعاشه، فإنه لم يسمع عنه أنه قال فيه كلمة سوء واحدة، وقال عنه أحد أصحابه:

– ما سمعت ابن مسعود يقول في عثمان سبة قط.

وعندما وصلته الأنباء بأن هناك محاولات لاغتيال عثمان، ثار بشدة مدركا خطورة ما يحدث على وحدة الأمة وكيان الدولة، وقال منزعجا في حق عثمان كلمته المأثورة:

« لئن قتلوه، لا يستخلفون بعده مثله».

كان ابن مسعود يفكر بمنطق المسلم المسئول عن دين عليه أن يحميه ويدافع عنه، لا بمنطق الشخص الذي يترقب زلات من خاصمه وخالفه حتى ولو انزلق الجميع إلى الجحيم.

هل ترون ابن مسعود بعد هذا الكلام بجسد نحيل كالعصفور، قصير يكاد الجالس يصل إليه وهو واقف.

أنا أراه عملاقا عظيما في دنيا الرجال.

وأرى الرجال الأشداء الذين لا يرون لأنفسهم أي دور تجاه دينهم وأمتهم، ليكونا أول الضحايا إذا ما تعارضت مصالحهم معهما، أقزاما صغارا.. مهما كبرت أجسادهم.

عاش ابن مسعود حتى دانت البلاد لراية الإسلام، وفتحت أبوابها تستقبل «لا إله إلا الله» في شوق ولهفة.

ورأى الرجل الفقير المناصب وهى تأتي إليه والأموال وهي تترامى عن يمينه وعن يساره، فكان ثابتا أمام الدنيا كثباته أمام أعدائه في المعارك قائلا:

« خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلب، وأعظم الخطايا الكذب، وشر المكاسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يغفر يغفر الله له ».

ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« من جعل الهموم هما واحدا، همه المعاد، كفاه الله سائر همومه، ومن شعبته الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديتها هلك».

وكان يمقت الفراغ، والشباب الذين يدمنون تضييع الوقت، ويهملون العمل لا يعبؤون باستغلال حياتهم، مهما أصابوا من الحياة المرفهة، فكان يقول:

« إني لأمقت الرجل إذ أراه فارغا.. ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة».

ترى كم شابا ستمقته اليوم يا ابن مسعود ؟!

وعندما داهم ابن مسعود المرض، دخل عليه أنس بن مالك ومعه بعض الصحابة يزورونه، فقال أنس:

فقلنا: «كيف أصبحت أبا عبد الرحمن؟».

قال: « أصبحنا بنعمة الله إخوانا ».

قلنا: « كيف تجدك يا أبا عبد الرحمن؟».

قال: « أجد قلبي مطمئنا بالإيمان».

قلنا له: « ما تشتكي أبا عبد الرحمن؟».

قال: « أشتكي ذنوبي وخطاياي».

قلنا: «ما تشتهي شيئا؟».

قال: « أشتهي مغفرة الله ورضوانه».

ولما حضر عبد الله بن مسعود الموت دعا ابنه فقال:

« يا عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، إني موصيك بخمس خصال، فاحفظهن عني:

أظهر اليأس للناس؛ فإن ذلك غنى فاضل، ودع مطلب الحاجات إلى الناس؛ فإن ذلك فقر حاضر، ودع ما يعتذر منه من الأمور ولا تعمل به، وإن استطعت ألا يأتي عليك يوم إلا وأنت خير منك بالأمس فافعل، وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع كأنك لا تصلي صلاة بعدها».

وفي السنة الثانية والثلاثين من الهجرة، في أواخر خلافة عثمان، وبعد قدومه إلى المدينة، لبى ابن مسعود نداء ربه، ليسكن بالقرب من حبيبه ﷺ.

إنه الآن في شوق إلى أن يراه ليحضنه ويقبله..

ثم يحمل نعليه..

ويهديه سواكا.

* * *

دروس وتحليل

١ – القرآن يعطي قوة إيمانية كبيرة، ترفع من همة المسلم وتزيد من جرأته (عبد الله بن مسعود يتجرأ ويقرأ القرآن بصوت عال أمام الكعبة رغم ضعف بنيته) .

قال تعالى : « فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ..»[النحل:٦٩].

إنه كلام الله، ولذا فهو يحمل بين طياته مالا يحمله كلام البشر، إنه يحمل في حروفه طاقة إيمانية جبارة لا يشعر بها إلا من يداوم على قراءة القرآن ليصبح جزءا من كيانه، وسيشعر بأن هذه الطاقة الإيمانية الغريبة، قادرة على تغيير صفات سيئة كثيرا ما عانى منها، ولم يجد سبيلا لحلها.

أعتقد أن القرآن والإيمان قد عالج مشكلة الخجل عند الكثيرين؛ فأصبحوا أكثر جرأة، وعالج أيضا مشكلة الانطواء عند آخرين، فأصبحوا أكثر اجتماعية وتفاعلا مع الناس، واستطاع أن يوقظ الحماسة في الكثير من الكسالى ليوقظهم لصلاة الفجر وقيام الليل ويجعلهم يحرصون على أوقاتهم أكثر من ذي قبل، ولقد استطاع الإيمان أن يحرك آخرين لتبني قضايا اجتماعية خاصة بدعوة الناس إلى الطاعة والأخلاق.

إن القرآن يوقظ الإيمان في النفوس؛ لذا يتغير من يشعر بهذا الإيمان، ويشعر أن الحياة قد دبت فيه، وأنه قد ولد من جديد، وصدق رسول الله ﷺ حين قال:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره، مثل الحي والميت».

٢– يوما ما سينتصر الضعفاء على الطغاة والظالمين (ابن مسعود يقتل أبا جهل في غزوة بدر).

سنة الله في الأرض أن يسقط الطغاة والظالمون يوما مهما طال العمر، ولكن سنته أيضا تقتضي أن يكون للمظلومين دور إيجابي فعال يتنافى مع السلبية والاكتفاء بالدعاء دون عمل.

لن يسقط الطغاة إلا إذا استحق الناس أن يسقطوهم، ولن يستحق الناس ذلك إلا بالعمل الجاد من أجل نيل حريتهم وفرض إرادتهم.

٣– مصاحبة الشباب الصالح تنقل إليك أخلاقهم بصورة عملية، وهي الوسيلة الفعالة للتغيير (ابن مسعود يلازم الرسول ﷺ ويتعلم كثيرا منه).

لعل من أهم وسائل التغيير على الإطلاق هو المصاحبة، فربما تأثر كثير من الشباب بهذا الكم الكبير من الدروس الدينية الفضائية التي استطاعت بالفعل أن تجذب إليها عددا كبيرا من الشباب ، وتتفجر لدى الكثير منهم رغبة حقيقية في التغيير، إلا أن منهم من لم يستطيع أن يبدأ خطوات التغيير واكتفى بالسماع، وآخرين يبدؤون التغيير بالفعل، ولكنهم لا يستطيعون الصمود أمام هجوم أصدقائهم ولومهم وسخريتهم، فيفضلون السلامة ويعودون من حيث أتوا، والقليل القليل الذي يكمل الطريق.

إن الفيصل في عملية التغيير هوالصحبة، فهي الوحيدة القادرة على نقل الأخلاقيات الجديدة بشكل عملي يؤدي فيما بعد للتعود والثبات عليها، إذا ما صادفت من يريد التغيير مشكلات بعد حين.

٤- أمنيات الدنيا أنستنا أمنيات الآخرة (أمنية عبد الله بن مسعود أن يرضى رسول الله ﷺ عنه مثلما فعل مع ذي البجادين وهو يدفنه) .

كثرت علينا أمنيات الدنيا، ولم تعط لنا فرصة لأن نتمنى لآخرتنا، صحيح أننا ندعو برضا الله ورسوله ﷺ ، ولكن هل درجة إخلاصنا بدعاء المال والصحة والستر تقارب درجة إخلاصنا بدعاء المغفرة والرحمة والفوز بالجنة ؟

ترى ما هو ترتيب أمنيات الآخرة في حياتنا ؟، وهل نشعر بها كما نشعر بدعاء النجاح في الدراسة والترقي في الوظيفة؟

إننا نحتاج أن نعيد حساباتنا حتى في الدعاء، حتى تكون أمنيات الدنيا تابعة لأمنيات الآخرة، لا أن تبقى أمنيات الآخرة في ذيل القائمة.

٥- الإخلاص في تحمل المسؤولية يحمي أي مؤسسة من الفتنة والانهيار (ابن مسعود يدافع عن عثمان بن عفان رغم خلافه معه).

ربى الرسول ﷺ صحابته على أن ولاءهم ينبغي أن يكون للإسلام لا للأشخاص، ومن هذا المنطلق فهم الصحابة أنهم مسئولون عن رسالة الإسلام.. وعليه فعندما يكون أحد مسئولا تجاه عمل ما؛ عليه أن يحرص عليه بإخلاص، ويحاول أن يجنبه الخلافات قدر الإمكان، وإذا حدث خلاف شخصي يكون هوالأقرب للتنازل إذا ما شعر بخطورة هذا الخلاف على العمل نفسه.

إن الإحساس بالمسئولية والإخلاص تجاه عمل ما يجعل من يحرص عليه قلقا عليه إلى أبعد الحدود، ويجعله على استعداد للتضحية والتنازل من أجل نجاح العمل، وربما تحمل الأذى في سبيل ذلك.

* * *

obeikandl.com